ذهاب النفوس في طلب الذهب

انبا في مقتطف مايو ان ابتياع اميركا لالاسكا كان صفقة رابحة لكثرة ما استخرجته منها من الذهب . وقد يُظَن لاول وهلة ان استخراج الذهب منه جاء بغير عناء وان مناجم الذهب في الدنيا اكوام كوّم الذهب فيها والغنى مقدور لطلاّبهِ ولكن الامر على ضد ذلك بل ان الكسب من الارض الزراعية اوفر من الكسب من المناجم الذهبية واقل خطراً . وعلى كل حال لا تقاس الثروة المعدنية بالثروة الزراعية. فالولايات المتحدة تستخرج في السنة من الذهب ما يساوي عشرين مليوناً من الجنيهات من الاسكا وغيرها ولكن حاصلاتها الزراعية في العام الماضي قدّر ثمنها باربعة آلاف مليون من الجنيهات . والذهب المستخرج من مناجم المكسونة كلها لا يبلغ في السنة مئة مليون جنيه

وقد اطلعنا على مقالة لرجل اميركي اسمهُ جس مكرمي وصف فيها ما لقيهُ من العناء في الوصول الى منجم ذهب في كندا من اميركا الشمالية فرأينا ان نلخصها في ما يلي قال

مضى عليَّ سنوات كثيرة وانا ابحث عن مناجم الذهب وغيره من المعادن والحجارة الكريمة فوجدت انهُ لا يكشف منجم منها الاّ ويقتل في سبيل اكتشافهِ واحد او اثنان . مثال ذلك اني التقيت ذات يوم بصديق اسمهُ ستيل قال لي انهُ اكتشف منجماً كثير الذهب واراني خريطة للمكان الذي اكتشفهُ فيهِ وحجرين منهُ يتخللهما كثير من الذهب والمكان مجاور لبحيرة اتنفند. ويمكن الوصول اليهِ بركوب سكة الحديد مسافة ١٢٠ ميلاً ثم بركوب زورق مسافة سبعين ميلاً . فهنأتهُ باكتشافهِ هذا وعزمت على الذهاب معهُ اليهِ وكان لي شريك فاخبرتهُ القصة وللحال اجمعنا على السفر باول قطر يقوم من هناك . والظاهر ان كثيرين دروا بوجود الذهب قرب بحيرة اتنفند فتتاروا من اماكن كثيرة للذهاب الى هناك والسابق منا ومنهم سيكون السابق في وضع يدهِ ولذلك لم اعجب لما رأيت في الصباح التالي خمسين رجلاً في المحطة على نية السفر في القطر الذي كنا مسافرين فيهِ ومعهم زوارق ليركبوها في البحيرة وكلٌّ منهم يحاذر ان يكلم غيرهُ لئلا يكتشف سرّهُ . وفي المساء وصل القطر بنا الى مكان فيهِ بيتان كبيران من الخشب

كانا لسكة الحديد وقد عجرتهما فأعدّا لنزول المسافرين بالاسرّة والموائد . وما اسرع ما تنتشر الاخبار في اميركا بلاد العجائب

وقنا في الصباح وحملنا امتعتنا وسرنا قاصدين بحيرة انتنفذ ولكن كان لا بدّ لنا من عبور بحيرات وانهر كثيرة قبل بلوغها وقد لقينا في ذلك مشقة يعجز القلم عن وصفها . مثال ذلك اننا لما بلغنا بحيرة فردرك هوس ونزلنا فيها يزورق اتينا بهِ معنا وجدنا مياهها تموج وتزبد بزوبعة شديدة جدًّا ولو حاولنا عبورها لاورثتنا الهلاك لا محالة فعدنا الى البر ونزلنا في غابة ملتفة الاشجار واستظلانا بها من المطر وفي المساء هدأت الزوبعة بغتةً ورأينا زورقين ماخرين في البحيرة امامنا فعدنا الى زورقنا واندفعنا وراءهما وكان الليل قد ارخى سدولهُ ولكن القمر كان بدراً تحجبهُ غيوم رقيقة تيصل الينا من ضوئهِ ما نرى بهِ طريقنا . ولا يبنا الامرّين في الابعاد عن الشاطئ لان الامواج كانت لا تزال تتصارع اليهِ مزبدةً . ورأينا ذينك الزورقين امامنا تتطتين سوداوين تتقاذفهما الامواج على نحو نصف ميل منا ولم نرَ زورقاً آخر غيرهما لا امامنا ولا وراءنا كأن الزوارق الاخرى عادت ادراجها ولم تخاطر كما خاطرنا . وبعد قليل اشتدت الزوبعة وتكاثفت الغيوم فاختفت القمر ومرّت ساعتان ونحن نجذف بكل قوتنا حتى كلت سواعدنا وخدرت ارجلنا وتبللت ثيابنا من الزبد المتطاير . ثم سمعنا صوتاً عن يسارنا اشد من صوت الزوبعة فالتفتنا واذا الساحل هناك صخور ناشزة تلطمها الامواج باصوات تصمّ الآذان ورأينا للحال اننا مسوقون اليها رغماً عنا ولا بدّ من ان يطرح زورقنا عليها ولم نكن نعلم هل هي من البر او من جزيرة صغيرة في تلك البحيرة . وبعد قليل رأينا عن يمننا زورقاً فيهِ رجلان يدافعان الامواج بكل جهد وكأن احدهما اعيا من التعب فطرح المجذاف من يديهِ وسدَّ للاقدار ثم رأينا زورقاً آخر فيهِ ثلاثة رجال

وكانت الريح تحذف الثلج المتساقط في اعيننا فيكاد يعمينا وبينما نحن في هذا المأزق انكسر مجذاف رفيقي فضرّج عني لانني رأيت ان ما قرّر لنا واقع لا محالة وكل جهد نبديهِ لا يجدي نفعاً . والتفت رفيقي اليَّ ضاحكاً لانهُ رأى ان الزوبعة غلبتنا فصار علينا التسليم للاقدار . وعبثت الامواج بزورقنا واوصلتهُ الى مكان قليل العمق حتى اذا ارتدّت عنهُ تركتهُ عارزاً في الرمل فوثبنا منهُ الى البحر

واسرعنا الى البر وعادت الامواج الينا ولكنها لم تستطع ردنا لاننا بلغنا مكاناً مرتفعاً وكان رفيقي قد امسك حبلاً مربوطاً بمقدم الزورق فتعاونا على جرهِ بيدٍ الى البر ووجدنا امتعتنا لا تزال فيهِ ولكنها مبتلة بالماء . وهناك غابة غضة الاشجار فجمعنا من اغصانها واضرمنا فيها النار واخذنا المشاعل بايدينا وعدنا الى الشاطئ نفتش عن الذين كانوا في الزورقين الآخرين ولم يكن الاَّ قليل حتى عثرنا على الثلاثة الذين كانوا في الزورق الثاني فان زورقهم غرق ونجوا هم بانفسهم وكانوا في حالة يرثى لها لان امتعتهم غرقت كلها ولم نجد أثراً للرجلين اللذين كانا في الزورق الآخر فعدنا الى النار التي اضرمناها وقضينا الليل هناك . والمكان الذي نزلنا فيهِ جزيرة صغيرة محيطها نحو نصف ميل

ورأينا في الصباح ان الجزيرة لا تبعد عن البر الاَّ ربع ميل . وكان البرد قد قرس ولكن الريح الشديدة منعت البحيرة من ان تجلد . فصنعنا رمثاً يحملنا كلنا وسرنا عليهِ الى البر وودعنا هناك الرجال الثلاثة وحملنا امتعتنا انا ورفيقي وسرنا الى الجهة التي فيها الذهب فوصلنا عند الظهر الى نهر رأينا عندهُ بعض الهنود الاميركيين فسألناهم هل يفهمون الانكليزية فاجابنا واحد منهم بالايجاب فاخبرناهُ بما اصاب رفاقنا وطلبنا منهُ ان يدلنا على الطريق الموصل الى حيث كنا نقصد فتلكأ في اول الامر ولكنهُ اجاب طلبنا لما ملأتُ يدهُ تبغاً ثم عرض علينا رجل آخر ان يسير معنا الى ان ندنو من بحيرة التنفذ فسرنا وراءهُ نحمل امتعتنا حتى اذا اشتد الظلام وتعذرت مواصلة السير ربط كلٌّ منا حراماً كبيراً من طرفيهِ في غصن شجرة ونام فيهِ وعند منتصف الليل نهضت لانني شعرت ببرد قارس وكان وقوع الثلج قد توقف ونهض رفيقي ايضاً واشعلنا النار وجلسنا نصطلي حتى اذا دفئنا واردنا الرجوع الى سريرينا سمعنا عواء بعيداً فعلمنا انها الذئاب وقد استروحتنا وقصدت الينا فاكثرنا من جمع الحطب وطرحهِ في النار وجعلنا منها دائرة حولنا فنمنا في وسطها وادخلنا اليها كل ما امكننا جمعهُ من الحطب . والذئاب تخاف النار كما يخاف الكلب الكلب الماء . وكان معنا مدسان وخرطوش كثير واذا لم نقلع في طرد الذئاب عنا فلا بدَّ لنا من الصعود الى شجرة عالية نقيم فيها الى ان يهرأ نا البرد او نجد سبيلاً آخر للنجاة

واقتربت الذئاب منا حتى صار الهواء يرتجُّ من عوائها ولم يكن الاَّ دقائق

قليلة حتى احاطت بنا بوجوه كالحة واشداق فاغرة واتضح لنا حينئذٍ اننا لا ننجو من انيابها ما لم يكفنا حطبنا الى طلوع الفجر لان شراستها تضعف في النهار . ولما طلع الفجر كان حطبنا قد كاد ينفد وكنت انا ورفيقي قد صعدنا الى الشجرة التي علقنا بها سريرينا. وصعد رفيقي الى اعلى الشجرة وناداني فأتيت لكي اصعد اليه حالاً فصعدت والتفت الى حيث يشير بيديه فكدت اطير فرحاً لانني رأيت على نحو مئتي متر منا نهراً يجري متعرجاً في قلب الغابة . فجعلنا نضرب اخماساً لاسداس لعلنا نجد سبيلاً نصل بواليه لاننا اذا تقلنا الرمث اليه وجلسنا عليه بمجدفينا وفأسينا امنّا كل ذئاب الارض

وبينما نحن ننتظر ولا ندري ما نفعل اذا بايل كبير من ايائل تلك البلاد والذئاب تهجم عليه وهو يدفعها عنه بقرنيه تارة وبحوافره اخرى وهي تثب عليه غير هيابة وتسل انيابها في جلده ولحمه حتى غطاه الدم ثم تكاثرت عليه وغابت عن نظرنا هي وهو في ملتوى من الارض فقلنا هي الفرصة السانحة لنا فنزلنا وبادرنا الى النهر ووجدنا على ضفته اخشاباً كثيرة فصنعنا منها طوناً وركبناه وكانت الشمس قد اشرقت بنورها الساطع وسرنا على هذه الصورة ساعة من الزمان بمجرى الماء وعواء الذئاب لم ينقطع من آذاننا لكنه صار بعيداً عنا ثم ملنا الى الضفة الاخرى وتابعنا السير الى ان بلغنا بحيرة التنفذ من غير ان نلقى في طريقنا شيئاً يستحق الذكر وقد بلغناها قبيل عيد الميلاد وسجلنا حقنا في الارض التي وضعنا يدنا عليها وانقضى ذلك الشتاء ١٩١١ — ١٩١٢ والعمل جارٍ بهمة ونشاط فبنى طلاب الذهب اربع مدن خشبية سموها بالاسماء التالية وهي التنفذة الجنوبية ومدينة الذهب وبتسفيل ولاكفي وطلبوا من الحكومة ان تمد سكة الحديد الى تلك البحيرة فلبت طلبهم حالاً وتناظر الناس الى هناك في الصيف من كل فج . وكان ذلك الصيف شديد الحر والجفاف فتوالى اشتعال النيران في الخراج المحيطة بنا . والتفت في الحادي عشر من يونيو فرأيت النيران تتأجج حولنا ونحن في التنفذة الجنوبية وقد اتصل بعضها ببعض فصارت ناراً واحدة تلتف في السهول كالبحر الزاخر وقد علا دخانها حتى غطى السماء واندلعت منه ألسنة كألسنة الشياطين والحال اتضح لي انها ستلتهم التنفذة الجنوبية حتماً ورأى ذلك غيري ايضاً حتى اذا مرت اول لفحة من لفحاتها في شوارع المدينة هرع

السكان من بيوتهم بالعشرات اولاً ثم بالمئات ولم يكن هنالك حينئذ قطر من قطرات سكة الحديد وكان في البحيرة نحو ١٢ قارباً فامتلأت حالاً بالمهاجرين الى مدينة الذهب وهم من النساء والاولاد والعجائز .وجعلت الصفارات البخارية التي في المناجم تصفر لتنبه الناس الى الخطر المحدق بهم .وبينما نحن في اشد حيرة لا ندري ماذا نعمل زلزلت الارض زلزالاً شديداً فان النار وصلت الى مستودع من مستودعات البارود ونسفته ثم تلته زلازل اخرى كلما وصلت النار الى مستودع

ولما مالت الشمس الى الزوال كان النساء كلهن قد غادرن المدينة وانتقلن بالقوارب الى مدينة الذهب وبقي الرجال على الشاطئ منتظرين القوارب لا يبدو على وجوههم شيء من امارات القلق وكانت الريح قد اشتدت وصارت عاصفة فافرغت القوارب شحنها وحاولت الرجوع فتعذر عليها من شدة العاصفة فلم يبقَ لنا نحن الرجال الا ان نبقى حيث كنا ونقاوم النيران وان لم نغلبها فلا بد لنا من الغوص في الماء .والهلاك غرقاً خير من الهلاك حرقاً .وكانت النار قد لعبت بالمدينة كلها وحرقت ما فيها من براميل البترول وصار حرها فوق الاحتمال فانقطع كل رجاء من اطفائها .وكان اخي معي فهربنا مع سائر الرجال امام النار الى البحيرة وجعلنا نخوض فيها ثم قلّ عصف الريح بغتة فالتفتنا وراءنا واذا في قلب المدينة بناء عالٍ من ثلاث طبقات وكان لم يزل قائماً وعلى سطحه رجلان وهما يركضان من جهة الى اخرى كالمجانين ولا يجدان سبيلاً للنجاة والحال اضطرمت النار في البناء كله فصار شعلة نار ومال على احد جانبيه فبسط احد الرجلين يديه نحو السماء كأنه يستغيث بالله وجعل الآخر ينتف شعره ثم كثر الدخان فحجب ذلك المنظر عن انظارنا .وبينما انا انظر داهلاً ضربني اخي بيده على كتفي فالتفت واذا اكثر الذين حولي ركبوا ما وجدوه من الزوارق والاخشاب وساروا بها بعضهم للنجاة وبعضهم للهلاك .وقال لي ستيل رفيقي الذي رافقني من اول السفر ان على مسافة غير بعيدة عنا بيتاً فيه زورق صغير فاذا استطعنا الوصول اليه بطوف تركبه مثل غيرنا فقد ننجو به فجمعنا بعض الاخشاب وركبناها وسرنا في الجهة التي فيها ذلك البيت وكان امامنا غابة صغيرة فقطعناها وكان ستيل سائراً امامنا فوقف بغتة والتفت الينا ثم قعد في مكانه كأنه رأى ملاك الموت فوق رأسه فالتفتنا واذا على نحو ثلثمائة متر منا مركبة من مركبات سكة الحديد محملة بالمواد المتفجرة وقد

وصلت النار اليها وكنا نعلم انها هنالك ولكن العجلة افقدتنا اياها وكانت الغابة وراءها شعلة نار والسبيل الوحيد امامنا لنجاة ان نصل الى البيت الذي فيه الزورق ونركبهُ ونعبر البحيرة لكن هذه المركبة لم تبق لنا ذرة من الامل اذ لا بدَّ لها من ان تنسف حالاً فتصيرنا هباء منثوراً . النار امامنا والنار وراءنا ومركبة من المواد المتفجرة في انتظارنا

و بينما نحن ننظر الى المركبة اختفت من امام اعيننا فانشق الهواء وارتجت الارض فوقعنا لا نعي على شيء . ولم نكد نفتح عيوننا حتى وقع علينا مطر من الاخشاب والحجارة ولكننا بقينا سالمين . وبعد قليل وصلنا الى البيت وخلعنا الباب واخرجنا الزورق منهُ وحملناهُ الى البحيرة مارين بين النيران المتقدة فاحترق شعرنا وخطفت انفاسنا ولكننا وصلنا الى البحيرة سالمين ورمينا الزورق فيها وهربنا بهِ من النار المحرقة الى الامواج المتلاطمة فرمنا بزوارق متقلبة والذين كانوا فيها لا يزالون ممسكين بها ولم نستطع ان ننقذ احداً منهم لان زورقنا اصغر من ان يسعنا نحن الثلاثة فصعود رابع اليهِ يقلبهُ لا محالة وكانت الامواج تعلو فوق رؤوسهم منذرة اياهم بهلاك عاجل . وتزايد قتام الدخان حتى كاد يحجبهم عن عيوننا ولكننا كنا نسمع صراخهم من وقت الى آخر وكلما سمعنا صراخ واحد علمنا انهُ غاص الى اعماق الماء

واشتد قتام الدخان فوق البحيرة حتى لم نرَ الى اين نحن سائرون الاَّ اننا كنا نعلم ان الريح تهب الى جهة مدينة الذهب فلا بد من ان تسوقنا اليها وكانت الامواج تعلو فوق رؤوسنا احياناً فتملأ الزورق ماء ولذلك كان عمل ستيل المستمر جرف الماء منهُ . ولما بلغنا منتصف البحيرة قل قتام الدخان فلمحنا مدينة الذهب وبتسفيل ولكننا رأينا بتسفيل خراباً والنار تضطرم في مدينة الذهب وليس حول البحيرة مكان خالٍ من النار الاَّ لسان من البر داخل فيها فدفعنا بمقدم الزورق اليهِ حتى اذا صرنا على نحو رمية حجر منهُ كثر الماء في الزورق فتعذَّر علينا الجري بهِ ورأينا الارانب والسناجيب والقطط البرية تسبح حولنا بالعشرات . ولما صرنا على نحو خمسين قدماً من البر رأينا دبًّا اسود ينبعث الدخان من جلدهِ ارتمى في الماء امامنا فغرق اولاً ثم طفا ثم غرق ثم طفا وهو يختلط واثقهُ فوق الماء يشخر وينخر وكأنهُ يقصد البعد عن البر على كل حال ولم

يدر بنا حتى صرنا على نحو عشرين قدماً منهُ وحينئذٍ اسرع الينا فضربتهُ بالمجذاف على رأسهِ فتكسر المجذاف اما هو فلم يبالِ بل وثب على الزورق واسلك بهِ بمحاذيهِ فقلب بنا وغصنا تحت الماء فانشغل بالي على ستيل لانهُ لا يسبح واما انا واخي فكنا ماهرين في السباحة فجعلنا نسبح حول المكان الذي غرق فيهِ الزورق لعلنا نعثر بستيل وبقي الدب يدور حولنا كأنهُ اشتاط منا. ومست رجلي شيئاً صلباً فعلمت انهُ الزورق فاشرت الى اخي وغصنا كلانا ورفعناهُ او رفعنا جانباً منهُ فرأينا ستيل قابضاً عليهِ بيديهِ فامسك اخي بهِ ورفع رأسهُ فوق الماء وهو ماسك بالزورق وجعلت اسبح واجرها نحو البر. ورآنا الدب ممكنين بالزورق حسب اننا اخذنا غنيمتهُ منهُ فاسرع الينا فاشرت الى اخي وستيل ان يتركا الزورق ويسبحا وعدت الى ستيل وامسكت بطوق قميصهِ واسرعت بهِ الى البر وكنا قد دنونا منهُ وبعد دقائق قليلة بلغناهُ انا واخي ورفيقنا الغريق. اما الدب فاستولى على الزورق واكتفى بهِ حاسباً اياهُ جزيرة يستطيع القيام عليها لانهُ حاول الصعود عليهِ مراراً فكان يفلت من يدهِ ويغرق ثم يطفو ولما رأى منهُ ذلك تركهُ وعاد يسبح على غير هدى

ولم نكد نصل الى البر حتى وصلت النار اليهِ فجعلنا نملأ جزمنا ماء ونطفئها بهِ الى ان اعيانا التعب على غير جدوى فعدنا الى البحيرة وخضنا فيها وخلعنا ثيابنا المبتلة وامسكناها امام وجوهنا كترة لنا من لفح النار. وكان الدب يعود الينا مرة بعد اخرى ولكنهُ كفَّ عن العداء كأن خطر النار انساهُ العداء لبني الانسان

ومرَّت ساعتان كأنهما عامان الى ان اكلت النار نفسها لما لم تجد ما تأكلهُ فسرنا على الشاطىء وقد تغطى بالبرانيط والاحذية وحطام الزوارق تخوض الماء مرة وتدوس الرماد والجمر اخرى الى ان وصلنا مدينة الذهب فوجدنا ان ما حرق منها انما هو المباني التي في ضواحيها. وتبعنا غيرنا من الناجين من الغرق وهم مثالنا بثياب ممزقة وشعر محروق وعيون يكاد الدم يقطر منها وكان النساء الذين سبقننا اليها لا يزلن على الشاطىء في انتظار ازواجهن واولادهنَّ واخواتهنَّ غير عالمات ان كثيرين منهم دفنوا في تلك البحيرة مع رماد بيوتهم

وهجت الريح لما توارت الشمس في الحجاب وكانت النار قد حرقت اعمدة التلغراف فلما نصب غيرها واصلح الخط كان اول اشارة برقية ارسلت بهِ طلب

التوابيت لدفن الغرق . لكن لم تمضِ ايام كثيرة حتى تناظر طلاب الذهب الى هناك ثانية وبنوا بيوتاً اخرى امتن من الاولى واقوى على مقاومة انذار وزاد المستخرج من الذهب لان النار عرّت الارض من اشجارها وكشفت اديمها فبانت عروق المعادن التي فيها . والعمران يرقى على رمم ضحاياه

باب تدبير المنزل

قد فتحنا هذا الباب لكي ندرج فيه كل ما يهم اهل البيت معرفته من تربية الاولاد وتدبير الطعام واللباس والشراب والمسكن والزينة ونحو ذلك مما يعود بالنفع على كل عائلة

الشهقة او السعال الديكي

هو مرض وافد يصيب الصغار على الغالب يسمّى في سورية الشهقة وفي مصر السعال الديكي وهذا الاسم الاخير ترجمة اسم المرض بالفرنسوية . وقد لحظنا ان هذا السعال يتفشى في هذا القطر في الربيع غالباً . وهو متفشٍ الآن في القاهرة وبعض مدن الريف . كتب الينا بعضهم يقول :

أصيب طفل لي بهذا السعال وعمره ستة وشهران . وكان اول الاعراض زكام دام اسبوعين فلم نشتبه في الاصابة ثم جعلنا نسمع الصوت المميز لهذا الداء فعرفنا اذ ذاك ان الطفل اصيب بالشهقة . ولاريب انهُ اعدي بها من بعض اولاد الجيران. وهذا الصوت المميز لعرض اشبه بصوت الدجاجة عند ما تبيض منهُ لصوت الديك ولو انصفوا لسموهُ الصياح الدجاجي لا الديكي

ولما اشتدت بالطفل نوباتهُ قصدت طبيباً صديقاً فقال ليس لهُ سوى الهواء النقي والطعام المغذي السهل الهضم ولكنهُ وصف لي دواء قال انهُ آخر ما وصل اليهِ الطب في علاج هذا الداء وفيهِ احد مركبات البروموز . وزاد على ذلك قولهُ ان الدواء لا يشفي الداء بل لا بدّ للداء من متابعة سيره كالحمى التيفوئيدية حتى يخفّ من قسوهِ شيئاً فشيئاً وجهد ما هناك ان الدواء يباعد بين النوب فيكفي الطفل تباريحها على قدر الامكان . ثم دفع اليّ كتاباً بالانكليزية قائلاً اقرأ هذه